أنوار السُّنَّة المُحمديَّة
شرح رياض الصالحين (١٤)
باب المراقبة (٢)

الشيخ أحمد السيد.

عطاء
البناء المنهجي

الفهرس

المقدِّمة: ٣
الحديث الثاني: ٣
فوائد الحديث: ٣
فوائد حديثية: ٣
فوائد سلوكية: ٥
الحديث الثالث: ٨
فوائد الحديث: ٩
الحديث الرابع: ١٣
فوائد الحديث: ١٤
الحديث الخامس: ١٥
فوائد الحديث: ١٥
الخاتمة: ١٧

المقدِّمة:

الحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً طيِّباً مباركاً فيه كما يحبُّ ربنا تبارك وتعالى ويرضى، الحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، اللهم لك الحمد في الأولى والآخرة، ولك الحكم وإليك المصير، اللهم صلِّ وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمَّد.

نستعين بالله ونستفتح المجلس الرابع عشر من مجالس رياض الصالحين وتحت عنوان الاستهداء بالسنة وعنوان أنوار السنة المحمّدية، نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من المهتدين بسنة النبي ﷺ المعظِّمين لها، وأن يرزقنا الفقه في دينه، وأن يرزقنا صحبة النبي ﷺ في الآخرة.

الحديث الثاني:

نحن في **باب المراقبة**، قال النووي -رحمه الله تعالى-: الثاني -أي الحديث الثاني في هذا الباب-:

عن أبي ذرٍّ جندب بن جنادة وأبي عبد الرحمن معاذ بن جبل -رضي الله عنهما- عن رسول الله ﷺ قال: "اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ" رواه الترمذي وقال: "**حديثٌ حسنٌ**".

فوائد الحديث:

فوائد حديثية:

لقد مرَّ معنا سابقًا أنَّه حين يقول الترمذي: "**حديثٌ حسنٌ**"، دلالة هذه العبارة لا تعني الحسن عند المتأخِّرين التي هي درجةٌ مقاربةٌ للصحَّة؛ الحَسن عند المتأخِّرين هو حَسنٌ مقاربٌ للصحيح، اللهمَّ شرط الضبط فقط أقلُّ، بدل أن يكون الراوي ثقةً يكون صدوقًا، لكن لا يوجد فرقٌ كبيرٌ بينه وبين الصحيح، اللهمَّ في الدرجة والرتبة وإلَّا كلُّها صحيحٌ، يعني يُحتجُّ به.

لكنَّ الحسن عند الترمذي ليس كذلك، الحسن عند الترمذي عرَّفه بثلاثة شروطٍ، فقال: **أن يُروى من غير وجهٍ عن النبي ﷺ، وأن لا يكون شاذًا، وأن لا يكون في إسناده مُتَّهمًا**. وأمَّا إذا كان في إسناده راوٍ فيه ضعفٌ أو فيه انقطاعٌ أو نحو ذلك، فهذا لا يتعارض مع قول الترمذي "**حسنٌ**".

وبالتالي يكون تقييمه الاصطلاحي "**ضعيف**". طبعًا ليس كلُّ ما أطلق عليه الترمذي حسنٌ يُقال فيه ضعيفٌ، لكن نحن لا نريد أنَّ الكلام في رياض الصالحين يكون دروسًا تخصُّصيَّة في الصَّنْعة الإسنادية، لكن مثل ما ذكرت أيضًا من المهم الإشارة إليه.

الترمذي هنا قال "**حديثٌ حسنٌ**"، وفي بعض النُّسخ "**حسنٌ صحيحٌ**"، لكن التي نقلها الترمذي هنا قال "**حديثٌ حسنٌ**"، وهذا حقيقةً من دقَّةِ الترمذي -رحمه الله تعالى-.

الإمام ابن رجب -تعلمون هذا الحديث في الأربعين النووية- له شرحٌ ثمينٌ جدًا للأربعين النوَوِية وهو (جامعُ العلوم والحِكَم)، وأنا برأيي أنَّ هذا أثمن شرحٍ للأربعين النوَوِية على كثرة الشروحات التي قُدِّمت للأربعين النووية.

(جامع العلوم والحِكَم) طبعًا زاد فيه الإمام ابن رجب عددًا من الأحاديث أصلًا على الأربعين؛ فأوصلها إلى الخمسين حديثًا، ثمَّ شرحها جميعًا، والشرح في غاية النَّفاسَة والجلال والأهمِّية، وبرأيي أنَّه من الكتب التي تعاد قراءتها، وتقرأُ مرارًا.

ومن أفضل التحقيقات تحقيق الشيخ طارق عَوَضْ الله، وله تحقيقاتٌ جيِّدةٌ، لكن ميزة تحقيق الشيخ طارق عوض الله دراسة كذلك الأحاديث التي في الشرح.

الشاهد أنَّ الإمام ابن رجب -رحمه الله- يتكلَّم على صِحَّة الأحاديث التي في الأربعين النوَوِية وضعفها، ومن جملة الأحاديث التي تكلَّم عنها هذا الحديث، وهو حديث أبي ذرٍّ ومعاذ " اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ".

أوَّلًا: هو الآن واردٌ عن أبي ذرٍّ ومعاذٍ، والأصحُّ أنَّهُ عن أبي ذرٍّ، وهذا الذي رجَّحهُ شيخ الترمذي محمود بن غيلان -رحمه الله تعالى-. ثمَّ بعد ذلك كونه هو من طريق ميمون بن أبي شبيبٍ عن أبي ذرٍّ.

ذكر أبو حاتم الرازي أنَّ ميمون لم يسمع من أبي ذرٍّ، وبالتالي الحديث من حيث الضبط الإسنادي فيه انقطاع، وكَونه فيه انقطاعٌ لا يعني عدم الاستشهاد به، ولا يعني عدم الاستئناس به، ولا يعني عدم ذكر هذا الحديث من جهة الفوائد؛ فالحديث فيه فوائدُ كثيرةٌ، والقضيَّةُ ليست أنَّ فيه ضعفًا شديدًا، ولكن فيه قدرًا من الانقطاع، فهذا فقط من جهة ذكر العلَّة.

طبعًا الحاكم -رحمه الله- توسَّع كعادته، وقال: أنَّ الحديث صحيحٌ على شرط الشيخين، وانتقده ابن رجب -رحمه الله تعالى-، وقال: كيف يكون على شرط الشيخين وميمون بن أبي شبيبٍ لم يُخرِّج له البخاري أصلًا، فكيف يُقال على شرط الشيخين؟! حتَّى الاسم نفسه —ليس فقط الهيئة- غير موجودٍ في البخاري، فكيف على شرط الشيخين؟!

والشيء الثاني أنَّ مسلم أخرج له في المقدِّمة فقط، ولم يُخرج له في صُلْب مادَّة الكتاب، هذا بالإضافة إلى أنَّ ميمونًا لم يصحَّ سماعه من أحدٍ من الصحابة في قولٍ، وبالنصِّ لم يسمع من أبي ذرٍّ رضي الله تعالى عنه.

هذه الآن نافذةٌ، نحن قلنا -يا جماعة-: لا نريد التوسُّع، وهذا الآن ليس توسُّعًا؛ هذا أخصر ما يمكن أن يقال، لكن في نفس الوقت مع كوننا لا نريد التوسُّع من الناحية الحديثية إلَّا أنَّه لا ينبغي إهمالها.

وهذا الكلام ليس لأنَّني مهتمٌّ بالحديث ويحبُّ الإنسان أن يظهر جانب الاهتمام، لا، وإنَّما لأنَّه فعلًا يجب أن يكون هناك عنايةٌ بصحَّة الأحاديث وبضعفها التي تُنْسب إلى النبي ﷺ.

فوائد سلوكية:

لكن أجود من هذا الحديث، هذا الحديث فيه جمعٌ بين التقوى وحُسن الخلق، أليس كذلك؟ "اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ".

- **حُسن الخلق:**

أجودُ من هذا الحديث في الجمع بين التقوى وحُسن الخلق هو الحديث الذي أخرجه الترمذي أيضًا وصحَّحه من حديث أبي هريرة، وهو حديثٌ عظيمٌ جدًّا، وفيه أنَّ النبي ﷺ سُئل عن أكثر ما يدخل الناس الجنَّة؛ فقال النبي ﷺ: "تَقْوَى الله، وَحُسْنُ الخُلُقِ" [جامع الترمذي: ٢٠٠٤].

وحقيقةً، حُسن الخلق هو بابٌ عظيمٌ من أبواب الدين، وسيأتي إن شاء الله في الكتاب أحاديثُ مفصَّلةٌ عن حُسن الخلق، لكن هنا ينبغي الإشارة إلى هذا المعنى.

تتذكَّرون يا جماعة –قد يكون في اللِّقاء الماضي– لما قلنا: الذي يُحدِّد أقرب الطرق إلى الله هو الله نفسه، الذي يُحدِّد الطريق الصحيح إلى الله هو النبي ﷺ، الله سبحانه وتعالى ونبيَّهُ ﷺ، وليس الاستحسانات الشخصيَّة، حتَّى لو كانت أمورًا من نفس الدين، لست أنت من تُحدِّد أنَّ هذا أقرب إلى الله من القربة الأخرى.

الآن حُسن الخلق، قد يأتي –مثلًا– واحدٌ فتح الله عليه في العبادة، فيقول: **وماذا يعني حُسن الخلق؟** يعني **أليس الذي يُقرِّب إلى الله ويُدخل الجنَّة أن أَنْصِب قدميَّ بين يدي الله خاشعًا، متبتِّلًا، باكيًا، تاليًا آيات القرآن، ساجدًا وقائمًا؟ أليس هذا هو الباب الأعظم؟**

أمَّا باب حُسن الخُلق فيه خُلطةٌ مع الناس والناس أصلًا منتشرٌ فيهم كذا وكذا، وأصبر على هذا، وأتكلَّم على هذا، وأحلم عن هذا، وأكظم غيظي عن هذا، لماذا كلُّ هذا أصلًا؟

نحن نقول له: أكثر ما يُدخل الناس الجنَّة تقوى الله وحُسن الخلق، "إِنَّ الْمَؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ" [سنن أبي داود: ٤٧٩٨]، والذي يُحدِّد هذا هو ما في الوحي، وليس أنت الذي تُحدِّد.

ولذلك قد يفوت الإنسان أن يدخل الجنَّة من بعض أبواب التعبد بالنوافل وبالصيام وما إلى ذلك، ويدخل الجنَّة من جهة حُسن الخلق، بل وقد يبلغ أعلى المنازل في الجنَّة بسبب حُسن الخلق!

وأنتم تعلمون الحديث: "أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسُنَ خُلُقُهُ" [سنن أبي داود: ٤٨٠٠]

وبناءً على ذلك كلِّه فنقول: المؤمن السائر في طريق الآخرة ينبغي عليه أن يحرص غاية الحرص على أن يضرب من كلِّ بابٍ من أبواب الخير بسهمٍ، وأن يعلم أنَّ من أعظم أبواب الخير التي يجب أن يكون له فيها سهمٌ حُسْن الخلق، وحُسن الخلق والبِرُّ أمرٌ هيِّنٌ كما قال، كان يقولها ابن عمر: " **وَجهٌ طليقٌ وَكَلَامٌ لَيِّنٌ**".

وطبعًا تعرفون كذلك مرَّ معنا تعريف بعض العلماء لما عرَّفوا حُسن الخُلق بترك الغضب، الحِلم، التغاضي، كظم الغيظ، الصبر، الحلم، الابتسامة، الإحسان إلى الناس، تحمُّلُ أذاهم؛ لأنَّ حُسن الخُلق له بابان: بابٌ في الكفِّ وبابٌ في الإعطاء.

هما بابان عظيمان: باب الكفِّ الذي يدخل فيه كظم الغيظ، كفُّ الأذى، تُمسِكُ عن الشرِّ، لا تؤذي جارك، هذا كلُّه من حُسن الخلق.

وبابٌ آخرُ وهو باب الإعطاء، وباب الإعطاء بدايةً من الأمور المعنويَّة وهي الابتسامة " لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَو أنْ تَلقَى أخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ" [صحيح مسلم: ٢٦٢٦].

"تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ" [جامع الترمذي: ١٩٥٦].وإلى ما فوق ذلك من العطاء وما إلى ذلك الذي يدخل ضمن البرِّ والصلة كذلك.

أيضًا في هذا الحديث "اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ". ولأجل هذه الجملة أخرج النووي الحديث في باب المراقبة، تحت جملة "حَيْثُمَا كُنْتَ" وهي الفكرة في قضيَّة المراقبة، وهذه الجملة فيها في القرآن لما مثلًا يأتي في القرآن ذكر الأحوال التعبُّديَّة سواءٌ في الاتقاء؛ اتقاءُ الحرام، أو في الفعل في مختلف الأحوال يعني مثلًا ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ [الأنعام: ١٢٠] مثلًا ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾ [البقرة: ٢٧٤] لاحظ اختلاف الأحوال!

وهكذا، ﴿يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾ [آل عمران: ١١٣] ...المداومة على الطاعة واتِّقاء الله سبحانه وتعالى " أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ يَرَاكَ حَيْثُمَا كُنْتَ" إلى آخره.

"وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا" فهذا أصلٌ في كتاب الله سبحانه وتعالى في ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [هود: ١١٤]، وابن تيمية له تعليقٌ جميلٌ على هذا الحديث كاملًا في (الوصيَّة الصغرى)، له تعليقٌ جميلٌ جدًّا في شرحه وبيان جُمَلِه؛ فتُراجَع، فيها فوائدُ جميلةٌ جدًّا.

الحديث الثالث:

الحديث التالي قال النووي –رحمه الله–: عن ابن عبَّاس –رضي الله عنهما– قال: "كُنْتُ خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمًا فَقَالَ: "يَا غُلَامُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللَّهَ؛ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ؛ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ؛ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ؛ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ؛ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ؛ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ". رواه الترمذي، وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

قال النووي وفي رواية غير الترمذي: "احفَظِ اللَّهَ؛ يحفَظكَ، احفَظِ اللَّهَ؛ تَجِدْهُ أمامَكَ، تَعرَّف إلى اللَّهِ في الرَّخاءِ؛ يَعرِفْكَ في الشِّدَّةِ، واعلَم أنَّ ما أصابَكَ لم يكُن ليُخطِئَك، وما أخطأكَ لم يكُن ليُصيبَكَ، واعلَم أنَّ النَّصرَ معَ الصَّبرِ، وأنَّ الفرجَ معَ الكربِ، وأنَّ معَ العُسرِ يُسرًا" [مسند أحمد: ٢٨٠٣]

هذا الحديث –حديث ابن عباس– حديثٌ عظيمٌ، وصحَّحه الإمام الترمذي –رحمه الله تعالى–، وله طُرقٌ عن ابن عباس، وابنُ رجب في شرح (جامع العلوم والحِكَم) ذكر أنَّه طريق حَنَش الصنعاني الذي هو أشهر طريقٍ لابن عباس لهذا الحديث، قال هي طريقٌ حسنةٌ جيِّدةٌ.

فالحديث من الأحاديث جيِّدة الإسناد التي ينبغي العناية بها، وهي من الأحاديث الثابتة عن رسول الله ﷺ، وهذا الحديث حديثٌ عظيمٌ.

طبعًا الرواية الأخرى التي عند غير الترمذي، قال ابن رجب: **"وَاللَّفْظُ الَّذِي ذَكَرَهُ الشَّيْخُ** –أي النووي– **رَوَاهُ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ فِي مُسْنَدِهِ بِإِسْنَادٍ ضَعِيفٍ عَنْ عَطَاءٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ"**، وهو اللَّفظ الزائد عن الترمذي وإن كان بعض جُملهِ رويت عن الإمام أحمد تحتاج إلى تتبُّع أسانيده وما إلى ذلك، لكن أصل الحديث هذا المذكور عند الترمذي حديثٌ صحيحٌ.

فوائد الحديث:

هذا الحديث حديثٌ عظيمٌ، وابن رجب –رحمه الله– غير أنَّه شرحهُ في (جامع العلوم والحِكَم) أفرد له رسالةً مستقلَّةً. يعني ابن رجب شرح هذا الحديث في رسالةٍ مستقلَّةٍ؛ لأهمِّية هذا الحديث ولجلال هذا الحديث، وأنا برأيي أنَّ هذا الحديث يدخل في قول جندب –رضي الله تعالى– عنه: "فَتَعَلَّمْنَا الْإِيمَانَ" [سنن ابن ماجه: ٦١]. أنَّه جزءٌ من "تعلَّمنا الإيمان".

وأيضًا هذا عنوانٌ للبحث؛ يعني: تتبُّع ما الذي يدخل في تعلَّمنا الإيمان، وليس التتبُّع من جهة الموضوعات وإنَّما في أحوال المصطفى ﷺ.

- **أين المواضع التي يمكن أن يُقال أنَّهُ عَلَّم فيها الإيمان؟ وما الذي يدخل فيها؟**

هذا موضعٌ للبحث، فهذا أنا برأيي واحدٌ من المواضع التي فيها "فتعلَّمنا الايمان"، هذا الآن مما يُعلَّم من الإيمان، حتَّى ما تكون الكلمة مجملةً: **ما الذي يُعلِّم الإيمان؟** هذا الحديث مما يُعلِّم الإيمان.

بالمناسبة أنا أحيانًا لما أجلس مع الفتيان من الجيل الصاعد أحاول أن أتذكَّر قول ما الذي كان يعلِّمه النبي ﷺ لأمثال هذا السنِّ؟ بحيث أنَّ الإنسان يقتدي بالنبي ﷺ في تعليمه، فأوَّل ما يطرأ ببالي هذا الحديث: "يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ" لما تتأمَّل في هذه الجملة التي هي ربط الإنسان، ربط العبد، ربط الفتى، ربط الغلام بالله سبحانه وتعالى بأن يتعلَّق قلبه به سؤالًا واستعانةً واستغاثةً وتوكُّلًا واستمدادًا، وفي نفس الوقت أن يؤمن إيمانًا تامًّا بالقدر، وبأنَّ الله هو الذي بيده النفع والضرُّ؛ فيتعلَّق بالله تعلُّقًا كاملًا، هذا من أهمِّ ما ينبغي أن يُعلَّمه الفتيان والصبيان والمؤمنون على مرِّ الطريق وعلى مرِّ المراحل.

فالنبي ﷺ هنا علَّم ابن عبَّاسٍ؛ أوَّلًا، يقول ابن عباس: "كُنْتُ خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ يومًا" ابن عبَّاسٍ كان صغيرًا، يعني هو ما شهد القتال مع النبي ﷺ، إلى أن توفِّي النبي ﷺ، وهو لم يبلغ سنَّ المعارك والقتال وهو فتًى صغيرٌ، ومع ذلك ابن عبَّاسٍ حفظ عن النبي ﷺ شيئًا كثيرًا، والأحاديث التي يرويها ابن عبَّاسٍ على قسمين:

١) قسمٌ سمعه مباشرةً من النبي ﷺ،

٢) وقسمٌ آخرٌ سمعه من الصحابة عن النبي ﷺ،

فالذي سمعه من النبي ﷺ مباشرةً: منه هذا الحديث، ومنه وهو من أشهر أحاديث ابن عبَّاسٍ لما قال: "بِتُّ عِنْدَ خَالَتِي مَيْمُونَةَ" [صحيح البخاري: ١٣٨].

معروفٌ الحديث: لما رأى النبي ﷺ يصلِّي في الليل، وقام فوقف عن يساره قال: "فأخذَني بيمينِهِ فأدارَني من ورائِهِ فأقامَني عن يمينِهِ ثم صَلَّى رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ رَكْعَتَيْنِ" إلى آخر الحديث المشهور، وفيه روايات، وفيه أشياء مفيدةٌ ومهمَّةٌ جدًا.

وكذلك: مرَّة كان مع النبي ﷺ فخدم النبي ﷺ، قال ابن عباس: "ضَمَّنِي النبيُّ ﷺ إلى صَدْرِهِ، فقالَ: اللَّهمَّ علِّمْه الكِتابَ" [صحيح البخاري: ٧٥].

طبعًا ابن عباسٍ هو ابن عمِّ النبي ﷺ، وهو فتًى ذكيٌّ، ذكيٌّ جدً ابن عباسٍ، وفيه نباهةٌ، وفيه وقادةُ الذكاء بحيث أنَّه يُعرف هذا من وجهه، ويُعرف هذا من تصرُّفاته، ويُعرف هذا من أفعاله؛ ولذلك اعتنى به النبي ﷺ ودعا له دعاءً مناسبًا لهذه الحال، وأنا أتمنى أنَّه في يومٍ من الأيَّام إن شاء الله أن نقف مع أدعية النبي ﷺ للصحابة، لأنَّه أحيانًا تجد أنَّ مسيرة الصحابي كاملةً أو جزءًا أساسيًّا من حياته بُنِي على دعوةٍ واحدةٍ دعاها النبي ﷺ له، وترى بركة أثر دعوة النبي ﷺ بشكلٍ عجيبٍ جدًّا، بل وتجاوز هذا إلى أن تظهر هذه البركات على من دعا لهم النبي ﷺ في منامه ممّن بعد الصحابة!

وأحيانًا مثلًا لما تسمع: "اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الكِتَابَ". فمن هو ابن عباس؟ ابن عباسٍ هو تُرجمان القرآن هذا أوَّلُ شيءٍ! يعني أشهر ما اشتهر به ابن عباسٍ هو معرفته بالكتاب وفقهه في الدين، وفي تأويل القرآن تحديدًا. كيف هذا؟ هذا كلُّه جاء من دعوة النبي ﷺ.

أنس بن مالك ماذا كانت دعوة النبي ﷺ لأنس؟ كانت أنَّ الله يبارك له في ماله وأهله، قال في الصحيح: "أنَّه دُفِنَ لِصُلْبِي مَقْدَمَ حَجَّاجٍ البَصْرَةَ بِضْعٌ وعِشْرُونَ ومِئَةٌ" [صحيح البخاري: ١٩٨٢].

توسَّعت ذُرِّيَّته وأحفاده، عائلةٌ كبيرةٌ كلُّها من دعوة النبي ﷺ، فيعني هذا أنَّ النبي المباركُ ﷺ ودعوته مباركةٌ وهذا أمرٌ عظيمٌ، وهنيئًا لهم على ما نالوا، ودعاء النبي ﷺ لأبي موسى ولعمِّهِ عامر لما قُتل عامر الأشعري –رضي الله تعالى عنه–، و أبو عامر قُتل مع النبي ﷺ في أوطاسٍ بعد حُنَينٍ، فتوضَّأ النبي ﷺ واستقبل القبلة ورفع يديه ومدَّها حتَّى بدا بياض إبطيه وهو يدعو لعامر الأشعري فقال: "اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ اجْعَلْه يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَوْقَ كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِكَ مِنَ النَّاسِ" فقال أبو موسى: "وأنا يا رسول الله، لي فادعُ". قال "اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعَبْدِ اللهِ بنِ قَيْسٍ ذَنْبَهُ، وَأَدْخِلْهُ يَومَ القِيَامَةِ مُدْخَلًا كَرِيمًا.قالَ أَبُو بُرْدَةَ: إحَدَاهُما لأَبِي عَامِرٍ، وَالأُخْرَى لأَبِي مُوسَى" أو كما قال النبي ﷺ [البخاري: ٤٣٢٣].

وتعرفون أُمُّ أبي هريرة كانت كافرةً وشديدةَ العناد لم تُرد أن تسلم أبدًا، وذهب منزعجًا أبو هريرة إلى النبي ﷺ، فدعا لها، فرجع وجدها تغتسل تريد الدخول في الإسلام، فسبحان الله! دعاء النبي ﷺ لأصحابه ولأمَّته هذا أمرٌ عجيبٌ عظيمٌ!

على أيَّة حال، هذا ابن عباسٍ دعا له النبي ﷺ، وبسبب هذه الدعوة كان عمر يقدِّمهُ –يعني بسبب آثار الدعوة–، وكان يجلس مع الكبار في مجلس عمر –رضي الله تعالى عنه– لعلمه؛ نتيجة دعوة النبي ﷺ.

طبعًا وهذه الدعوة لا تعني عدم الأسباب، بالعكس، في الأخير هذه الدعوة معناها أنَّه معك توفيقٌ من الله، فأنت ابذل ما عليك واجتهد. وبالمناسبة، هذا يشمل حتَّى الأمَّة، لذلك أنت لما تعمل للأمَّة، تعمل باستحضار أنَّ النبي ﷺ دعا لها، فيكون هذا من الخير الذي يستحضره الإنسان؛ أنت لا تعمل في مشروعك الشخصي، أنت تعمل في ميدان الأمَّة التي دعا لها النبي ﷺ، وهذه لفتةٌ مهمَّةٌ جدًّا.

الشاهد في هذه الفائدة هو اعتناء النبي ﷺ بالفتيان، بذوي النباهة، حرصه عليهم، وهنا أردفه النبي ﷺ. وكذلك لا أدري هل أحدٌ جمع هذه القضيَّة أو لا، ولكن عادةً العلماء يجمعون أجزاءً في مثل هذا؛ وهو "**من أردفهم النبي ﷺ**"، وهذه أيضًا لطيفةٌ تُجمع.

على أيَّة حالٍ، هذا الحديث حديثٌ عظيمٌ، فيه تعليم الإيمان، أوَّل شيءٍ قال: "يا غلام إنِّي أعلِّمك كلماتٍ". وهذه الجملة تساعد على الحفظ، وهي من الأساليب التي ينبغي أن تُستعمل إلى الآن، أنت مربِّي مثلًا عندك طلَّابٌ، تقول له: "اسمع منِّي، أنا أوصيك بثلاثة أمورٍ، أريدك أن تنتبه لها جيِّدًا"، هذا أسلوبٌ نبويٌّ، "سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ" [صحيح البخاري: ٦٦٠].

"ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ؛ وَجَدَ بِهِنَّ حَلاوَةَ الإِيمَانِ" [صحيح البخاري: ١٦]."آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ" [صحيح البخاري: ٣٣]، ليس المقصود أنَّ آيات المنافقين ثلاثةٌ فقط، لا، المقصود: الآن في هذا الحديث الذي أريد أن أحدِّثكم به، يعني كأنَّه يقول سأذكر لكم ثلاث علاماتٍ من علامات المنافقين، بدليل أنَّه قال في الحديث الثاني: "أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا" [صحيح البخاري: ٣٤] وهكذا، فهذا للتعداد هنا.

قال "إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ"، وكأنَّ هنا مجموعة كلماتٍ أو مجموعة جملٍ ستقال لك يا ابن عباس فتَنَبَّه، ومجرَّد التنبيه هذا مهمٌّ جدًّا، "احْفَظِ اللَّهَ؛ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ؛ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، وَإِذَا سَأَلْتَ؛ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ؛ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأقلام، وجفَّت الصُّحُف"

يعني ما شاء الله الحديث لا يحتاج شرحًا، فقط يحتاج أنَّك تقف عنده تتذوَّق هذه الكلمات، وتعيش معها، وتوطِّنها في قلبك، تعمل لها توطينًا داخل النفس والقلب، خاصَّةً الجملة الأخيرة؛ لأنَّها تحتاج إلى استقرارٍ داخل النفس، أمَّا الأولى فتوصياتٌ عمليَّةٌ، "احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ": يعني احفظ الله في أمره ونهيه وحدوده؛ لأنَّه قال: ﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١٢].

"احْفَظِ اللَّهَ في هذه؛ يَحْفَظْكَ فيما تحتاج إلى أن يحفظك فيه؛ في نفسك، أهلك، مالك، ولدك، "احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ" والجزاء من جنس العمل.

"احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ". وهذه أعظم جائزةً ينالها الإنسان في الدنيا؛ أن يجد الله تجاهه حيثما توجَّه، يعني أينما أتى في وادٍ من الأودية، أو ميدانٍ من الميادين، أو مشكلةٍ من المشكلات، أو أزمةٍ من

الأزمات، أو حاجةٍ من الحاجات يجد أنَّ الله قريبٌ منهُ وأنَّه يجيب سُؤله متى ما طلب، مثل ما في الحديث الآخر: "وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ" وهذا من أعظم أسباب إجابة الدعاء.

إجابة الدعاء لا تختصُّ بقضيَّة اتِّخاذ الأسباب المباشرة لإجابة الدعاء نحو الوضوء واستقبال القبلة والتوسُّل بالأسماء والصفات وما إلى ذلك مما هو من أسباب إجابة الدعاء المعلومة، ولكن من أهمِّها هو أن تحفظ الله، وستجده تجاهك بحفظه وعونه ومدده وإجابة سؤالك، وكذلك بأن تتقرَّب إليه بما يحبُّ، فيحبُّك، فيجيب سُؤلك.

قلنا: أكثر شيءٍ يحتاج إلى استقرارٍ في القلب هو "وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ رُفِعَتِ الأقلام وجفَّت الصُّحُف".

وهذه القاعدة من يسير عليها –وهي قاعدةٌ يقينيةٌ– يطمئنُّ في حياته؛ لأنَّه يعلم أنَّ ما أصابه لم يكن ليخطِئه وأنَّ ما أخطأه لم يكن ليصيبه، فيطمئنُّ في حياته، يتَّخذ الأسباب، وإذا اتَّخذها يتَّخذها وهو مطمئنٌّ، وإذا أغلقت أمامه الأبواب يعلم أنَّ وراء هذا الإغلاق إمكانٌ للفرج إذا أراد الله وقدَّر ذلك، فلا يوجد في هذه الحياة في قوانينها أشياءُ نهائيةٌ غير خارجةٍ عن قدر الله سبحانه وتعالى، كلُّ شيءٍ بقدر الله سبحانه وتعالى، وهذه القاعدة متى ما استقرَّت في قلب الإنسان اطمئنَّ وارتاح، وخاصَّةً إذا كان ممَّن يعمل لدين الله، وينصر دين الله، ويجاهد في سبيل الله، ويسعى للتضحية في سبيل الله، وما إلى ذلك، يحتاج إلى هذه القاعدة اليقينية على طول الطريق.

الحديث الرابع:

الحديث التالي قال –رحمه الله تعالى–: عن أنسٍ –رضي الله عنه– قال: "وَاللَّهِ إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالًا هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعَرِ كُنَّا نَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ الْمُوبِقَاتِ" رواه البخاري، وقال: الموبقات المهلكات.

فوائد الحديث:

"إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالًا هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعَرِ كُنَّا نَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْمُوبِقَاتِ" فيه دليلٌ على أنَّ الحالة العامَّة للأزمنة للناس، تؤثِّر في معيار النظر إلى الذنوب والمعاصي من جهةِ استصغارها أو تعظيمها، وأنَّ هذه واحدةٌ من المقاييس التي تقاس بها المجتمعات أو الحالات، المجتمعات سواءٌ الواسعة أو المجتمعات الضيِّقة، أنَّه لما كنا في زمن النبي ﷺ كان عندنا معايير معينَّةٌ، من ضمن المعايير هذه أن ذنوبًا من الذنوب كنَّا نعدُّها من الموبقات، من المهلكات، كانت هذه هي الحالة العامَّة في وقت النبي ﷺ، ثمَّ بعد ذلك لما عِشْت فيكم في هذا الزمن -أنس بن مالك يقول هذا، وتعلمون أنَّ أنسًا عاش إلى ٩٣ هـ تقريبًا، توفِّيَ آخر القرن الأول-، وفي هذا القرن صارت متغيَّراتٌ كثيرةٌ على المستوى الاجتماعي، على مستوى الناس؛ فالناس دخلت في دين الله أفواجًا من أصولٍ مختلفةٍ، من خلفيَّاتٍ متنوِّعةٍ، صار هناك اختلالٌ للموازين، فمن جملة ما حصل أنَّ الصحابة كانوا ينتبهون لهذه المتغيَّرات، وأنس بن مالك كان أحد الذين عندهم انزعاجٌ شديدٌ من التغيُّرات التي حصلت، ولذلك يقول: "لاَ أَعْرِفُ شَيْئًا مِمَّا أَدْرَكْتُ إِلَّا هَذِهِ الصَّلاَةَ وَهَذِهِ الصَّلاَةُ قَدْ ضُيِّعَتْ" [صحيح البخاري: ٥٣٠].

لأنَّه صار هناك تأخيرٌ للصلاة عن وقتها في وقت بعض أُمراء بني أُمية، وهذا أخبر به النبي ﷺ من الأمور التي ستحصل بعده، -وهذا سيأتينا في خير القرون إن شاء الله- أنَّه كان هناك انزعاجٌ من بعض الصحابة -رضوان الله تعالى عليهم- مما يجري من أشياء وأحداثٍ في وقتهم من متغيَّراتٍ داخل المجتمع مرتبطة بالذنوب والمعاصي.

الشاهد أنَّ من جملة هذه الأشياء: **أنَّه صار هناك قدرٌ من الاستسهال للذنوب**، وحقيقةً يا جماعة الخير هذا واحدٌ من المؤشِّرات التي ينبغي أن تُسْتصْحبَ في النواحي الإصلاحية، ما هو هذا المؤشِّر؟

هذا المؤشِّر هو أهمِّيةُ المحافظة على الحساسية تُجاه الذنوب، حتَّى لو وقع الناس فيها، لكن أن يقع الناس في الذنوب وعندهم تخوُّفٌ منها، فهذا أقلُّ ضررًا بكثيرٍ مما لو وقع الناس في الذنوب وفقدوا إحساسهم تُجاهها.

المشكلة هنا التي ذكرها أنسُ بن مالكٍ ليست في مجرَّد الوقوع في الذنوب، المشكلة التي ذكرها أنس بن مالك –رضي الله تعالى عنه– هي في استصغار هذه الذنوب، "إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالًا هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعَرِ " هذه هي المشكلة، "كُنَّا نَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْمُوبِقَاتِ " وفي هذا الحديث فائدةٌ مهمَّةٌ وهي:

أنَّ انتشار ذنبٍ ما وقلَّة الحساسية تُجاهه لا تُغيِّر من حقيقته، وجود ذنبٍ معيَّنٍ مثل زماننا هذا، تعرفون أنَّ بعض الذنوب صارت بعضها تكاد تصفها تقول مما عمَّت به البلوى، كونها منتشرةً ليس معناه أنَّه هي في ميزان الله ليست مُغلَّظةً، لا، نعم هذا قد يؤثِّرُ في فقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بحيث أنَّ الشيء المُنتشر يحتاج إلى فقهٍ معيَّنٍ في التعامل، نعم هذا يتغيَّر: **ماذا يُغلَّظ فيه؟ ماذا يُشدَّد فيه؟** لكن في ذات الأمر ليس معناه أنَّه إذا انتشرت معناه أنَّها ليست مُغلَّظةً، لا، وليس من المقاييس –كما تعلمون– قَول **"كلُّ الناس يفعلون كذا"**.

على أيَّة حالٍ، من أهمَّ الأمور التي تجعل الذنوب الكبيرة صغيرةً في أعين الناس: ترك إنكار المنكرات، ولذلك من أعظم صمَّامات الأمان في هذه الأمَّة: **المحافظة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن أعظم الشرِّ الذي يمكن أن يحصل هو ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر** بحيث أنَّه ليس فقط تنتشر المنكرات، وإنَّما أفظع من ذلك: **أن ينتشر استسهال المنكرات واستصغارها**.

الحديث الخامس:

ثمَّ قال: الخامس، عن أبي هريرة –رضي الله عنه– عن النبي ﷺ قال: "إِنَّ اللَّهَ يَغَارُ، وإِنَّ المؤْمِنَ يَغَارُ، وَغَيْرَةُ اللهِ أَنْ يَأْتِيَ المؤْمِنُ ما حَرَّمَ عليه" متفق عليه.

والغَيرة: بفتح الغين وأصلها الأنفة.

فوائد الحديث:

نعم هذا الحديث هو من الأحاديث التي تُخيف الإنسان المؤمن، والله سبحانه وتعالى يريد منَّا أن نخافه،

- وقد قال سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨].
- وقال سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [النحل: ٥١].
- وقال سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ [النحل: ٥٢].
- ووصف الملائكة الكرام الذين لا يعصون الله ما أمرهم بقوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠].
- ووصف الأنبياء بقولهم: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [يونس: ١٥].

وغير ذلك من الآيات التي فيها ذكر خوف الأنبياء من الله سبحانه وتعالى ومرَّ معنا قريبًا كلام يحيى بن زكريا عليه السلام لما قال: "فَإِنِّي أَخَافُ إِنْ سَبَقْتَنِي بِهِنَّ أَنْ يُخْسَفَ بِي أَوْ أُعَذَّبَ" [جامع الترمذي: ٢٨٦٤].

ومن جملة الأشياء التي تجعل المؤمن يخاف من الله أن يتعرَّف على الله سبحانه وتعالى. التعرُّف على الله يقود إلى بابين عظيمين: **باب المحبَّة والرجاء، وباب الخوف والخشية**.

والذي تكون نتيجة المعرفة بالله عنده هي واحدةٌ من البابين فقط، فقطعًا تَعرُّفُه على الله فيه نقصٌ، يعني الله لا يُحبُّ منَّا أن لا نكون إلَّا على خوفٍ فقط، وعلى وجلٍ منه فقط ولا يُحبُّ منَّا أن نكون على محبَّةٍ ورجاءٍ فقط، وإنَّما يريد منَّا أن نجمع بين الأمرين، وهذا إنَّما يأتي بالعلم بالله سبحانه وتعالى والمؤمن يتقلَّب حاله بين هاتين الصفتين.

وأحيانًا ترى في نفس الموضع تأتيه حالةٌ من الرهبة، ثمَّ تأتيه حالةٌ من السكون والطمأنينة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ...﴾ [الزمر: ٢٣].

هذا اللِّين الذي فيه الطمأنينة والسكينة والسكون، وإن كانت قد اقشعرَّت قبل قليلٍ، فهذا الجمع بين الأمرين هو المطلوب، ومن جملة ما يجعل الإنسان يتنبَّه أنَّ الله يغار، وغيرة الله أن يأتي المرء ما حرَّم الله عليه.

وجاء توضيحٌ لهذا الحديث في حديثٍ آخر: "والله مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ" [صحيح البخاري: ١٠٤٤].

كيف إذا كان السيَّد عنده عبدٌ ثمَّ زنى، أو عنده أمةٌ ثمَّ زُنِيَ بها، أو زنت أو ارتُكِبَت بها الفاحشة؟ كيف يغار السيَّد على أمته أو على عبده؟ قال النبي ﷺ: "والله مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ" [صحيح البخاري: ١٠٤٤].

وهذا ليس خاصًّا بالزنا، وإنَّما عمومًا ارتكاب المحرَّمات والمعاصي، فالإنسان يجتنب المحرَّمات والمعاصي تارةً من جهة الخوف، تارةً من جهة الأدب مع الله، تارةً من جهة الحياء منه، تارةً من جهة كذا، وكلُّ هذه أبوابٌ تتعاور على قلب المؤمن؛ فيجتنب الذنوب والمعاصي بناءً على ما يقع في قلبه.

وهذا النصُّ هو من أبواب العلم بالله والمعرفة به "إنَّ الله تعالى يغار" وليس مطلوبًا من الإنسان أن يدخل في هذا النصِّ بالتأويلات؛ يكفي أنَّ الله سبحانه وتعالى يغار، أن تعرف هذا المعنى الذي يليق بالله سبحانه وتعالى، والله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيءٌ، وليس مطلوبًا من الإنسان أن يُدقِّق ويُفتِّش فيما لا تكليف له فيه، وإنَّما هو مكلَّفٌ بأن يؤمن بالله سبحانه وتعالى، وبما جاء عن الله، وبما جاء عن رسول الله ﷺ عن الله سبحانه وتعالى.

والثمرة من هذا: أن يدرك الخوف من الذنوب ومن المعاصي

الخاتمة:

نسأل الله سبحانه وتعالى العون والتوفيق، وصلِّ اللَّهمَّ على نبيِّنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين.